الوقت من ذهب
حكمة القراءة والثقافة الأدبية

الدكتور أحمد زكي بدوي
مدير إدارة الصحافة والنشر
والثقافة المصرية

مطبوعات دار المأمون

سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق

حلقة

الغزالي

في مجلدين

مضبوطةً ومشروحةً ومعلقاً عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

المجلد الأول

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

اعتراف بالجميل

تدين هذه السلسلة من سلسلة زعماء الفلسفة والأدب والأخلاق العربية لمكتبة القراءة والثقافة الأدبية إلى حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل على زكى العرابى باشا وزير المعارف ، ووكيله الأستاذ العالم محمد العشماوى بك ، وحضرات معاونيهما لأمجاد فى تقرير مبدأ مراجعة الوزارة لأصولها النهائية خدمة للثقافة واللغة والأدب .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ أَمَّا بَعْدُ

فَقَدْ قَالَ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ

إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ: لَوْ غُيِّرَ هٰذَا لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ، وَلَوْ قُدِّمَ هٰذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تُرِكَ هٰذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهٰذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ.

الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِي

الإهداء

إلى ملوك المسلمين

إلى أقيال[1] المسلمين

إلى زعماء الإصلاح الإسلامي

إلى الفكرة الإنسانية المحمدية المتواضعة

إلى روح الغزالي المسلم المتصوف

ثم إلى حضرات أصحاب الدولة والمعالي والسعادة، الذين أحسنوا إلي في إخراج هذا الكتاب

ثم إلى حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا إذ مكنني - حفظه الله في فترة مخنى من الانصراف إلى ذلك النوع من الحياة الإسلامية الهادئة، في عزلة وتسامح ومحبة وغفران.

وإلى حضرتي صاحبي الدولة: محمد توفيق نسيم باشا الذي أعادني إلى الخدمة وعلي ماهر باشا الذي حاول إنصافي - واللذين بعثا بذلك في نفسي شيئاً من الأمل في إبراز ما وقفت عليه في تلك الفترة الخالدة من سني حياتي، من قراءات ومطالعات وثقافات[2]

وإلى حضرة صاحب السعادة الاقتصادي الكبير محمد طلعت حرب باشا الذي حباني بعطفه وعونه ومروءته حين قل الإخوان وتنكر[3] الزمان

---

١ اقيال: جمع قيل وهو الرئيس دون الملك

٢ ثقافات: جمع ثقافة بمعنى ما حذقه الانسان وفطنه

٣ تنكر الزمان: تغير عن حال تسر الى حال تنكره

إلى حضرة صاحب المعالي الأستاذ النابغة الكبير علي زكي العرابي باشا
وزير المعارف، في وزارة الأمة، الذي بعث في شخصي الضعيف،
بما قرره من مبدأ مراجعة أئمة اللغة في وزارته، ما أعمل على
إحيائه من مؤلفات العرب. وشخصيات الإسلام معنى
الأمل فيما يسفر عنه الجلد والمجالدة، والصبر والمجاهدة،
لخدمة اللغة والثقافة والوطن

ثم أخيرا وأولا

إلى زعيم الوطنية في مصر، ورمز الصلاح والتقوى في الشرق
ومثال المحبة الإنسانية السامية في الإسلام، أستاذي
وزعيمي ووصيي لنعمتي، حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا
أهدي هذا الكتاب

الخادم المخلص الأمين

أحمد فريد رفاعي

ربيع الآخر سنة ١٣٤٥

دار المأمون في
يوليه سنة ١٩٢٦

صدرت هذه المجموعة في فجر العهد الدستوري

بحضرة صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول

حفظه الله

كَلِمَةُ فَضِيلَةِ مَوْلَانَا الْأُسْتَاذِ الْأَكْبَرِ
الشَّيْخِ مُحَمَّدِ مُصْطَفَى الْمَرَاغِيِّ شَيْخِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ

إِذَا ذُكِرَتْ أَسْمَاءُ الْعُلَمَاءِ ، اتَّجَهَ الْفِكْرُ إِلَى مَا امْتَازُوا بِهِ مِنْ فُرُوعِ الْعِلْمِ ، وَشُعَبِ الْمَعْرِفَةِ : فَإِذَا ذُكِرَ ابْنُ سِينَا ، أَوِ الْفَارَابِيُّ ، خَطَرَ بِالْبَالِ فَيْلَسُوفَانِ عَظِيمَانِ مِنْ فَلَاسِفَةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِذَا ذُكِرَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ خَطَرَ بِالْبَالِ رَجُلٌ صُوفِيٌّ ، لَهُ فِي التَّصَوُّفِ آرَاءٌ لَهَا خَطَرُهَا ؛ وَإِذَا ذُكِرَ الْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَحْمَدُ ، خَطَرَ بِالْبَالِ رِجَالٌ لَهُمْ أَقْدَارُهُمْ فِي الْحِفْظِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْأَمَانَةِ ، وَالدِّقَّةِ ، وَمَعْرِفَةِ الرِّجَالِ .

أَمَّا إِذَا ذُكِرَ الْغَزَالِيُّ ، فَقَدْ تَشَعَّبَتِ النَّوَاحِي ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِالْبَالِ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، بَلْ خَطَرَ بِالْبَالِ رِجَالٌ مُتَعَدِّدُونَ ، لِكُلٍّ وَاحِدٍ قُدْرَتُهُ وَقِيمَتُهُ .

يَخْطُرُ بِالْبَالِ الْغَزَالِيُّ ، الْأُصُولِيُّ ، الْحَاذِقُ ، الْمَاهِرُ ؛ وَالْغَزَالِيُّ الْفَقِيهُ الْحُرُّ ؛ وَالْغَزَالِيُّ الْمُتَكَلِّمُ إِمَامُ السُّنَّةِ ،

وَحَامِي حِمَاهَا ؛ وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلِاجْتِمَاعِيُّ ، ٱلْخَبِيرُ بِأَحْوَالِ ٱلْعَالَمِ ، وَخَفِيَّاتِ ٱلضَّمَائِرِ ، وَمَكْنُونَاتِ ٱلْقُلُوبِ ، وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلْفَيْلَسُوفُ ، أَوِ ٱلَّذِي نَاهَضَ[١] ٱلْفَلْسَفَةَ ، وَكَشَفَ عَمَّا فِيهَا مِنْ زُخْرُفٍ وَزَيْفٍ[٢] ، وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلْمُرَبِّي ، وَٱلْغَزَالِيُّ ٱلصُّوفِيُّ ٱلزَّاهِدُ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ : إِنَّهُ يَخْطُرُ بِالْبَالِ رَجُلٌ هُوَ دَائِرَةُ مَعَارِفِ عَصْرِهِ ، رَجُلٌ مُتَعَطِّشٌ إِلَى مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ ، نَهِمٌ[٣] إِلَى جَمِيعِ فُرُوعِ ٱلْمَعْرِفَةِ . وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِمَّا قَالَهُ ٱلْغَزَالِيُّ عَنْ نَفْسِهِ فِي كِتَابِ ٱلْمُنْقِذِ مِنَ ٱلضَّلَالِ : « وَلَمْ أَزَلْ فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِي مُنْذُ رَاهَقْتُ ٱلْبُلُوغَ ، وَقَدْ أَنَافَتِ[٤] ٱلسِّنُّ ٱلْآنَ عَلَى ٱلْخَمْسِينَ ، أَقْتَحِمُ لُجَّةَ هَذَا ٱلْبَحْرِ ٱلْعَمِيقِ ، وَأَخُوضُ غَمْرَتَهُ[٥] ، خَوْضَ ٱلْجَسُورِ ، لَا خَوْضَ ٱلْجَبَانِ ٱلْحَذُورِ ، وَأَتَوَغَّلُ فِي كُلِّ مُظْلِمَةٍ ، وَأَتَهَجَّمُ عَلَى كُلِّ مُشْكِلَةٍ ، وَأَتَقَحَّمُ[٦] عَلَى كُلِّ وَرْطَةٍ ، وَأَتَفَحَّصُ عَقِيدَةَ كُلِّ فِرْقَةٍ ، وَأَكْشِفُ أَسْرَارَ مَذْهَبِ كُلِّ طَائِفَةٍ ؛ لِأُمَيِّزَ بَيْنَ

(١) ناهض الفلسفة : قاومها (٢) الزيف : رداءة النقد لما به من غش
(٣) نهم : شره (٤) أنافت السن : زادت (٥) غمرته : كثرته ومعظمه
(٦) أتقحم : أهجم

مُحِقٍّ وَمُبْطِلٍ ، وَمُتَسَنِّنٍ وَمُبْتَدِعٍ ، لَا أُغَادِرُ بَاطِنِيًّا إِلَّا وَأُحِبُّ أَنْ أَطَّلِعَ عَلَى بِطَانَتِهِ ، وَلَا ظَاهِرِيًّا إِلَّا وَأُرِيدُ أَنْ أَعْلَمَ حَاصِلَ ظِهَارَتِهِ ، وَلَا فَلْسَفِيًّا إِلَّا وَأَقْصِدُ الْوُقُوفَ عَلَى كُنْهِ فَلْسَفَتِهِ ، وَلَا مُتَكَلِّمًا إِلَّا وَأَجْتَهِدُ فِي الِاطِّلَاعِ عَلَى غَايَةِ كَلَامِهِ وَمُحَاوَلَتِهِ ، وَلَا صُوفِيًّا إِلَّا وَأَحْرِصُ عَلَى الْعُثُورِ عَلَى سِرِّ صَفْوَتِهِ ، وَلَا مُتَعَبِّدًا إِلَّا وَأَتَرَصَّدُ مَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَاصِلُ عِبَادَتِهِ ، وَلَا زِنْدِيقًا[1] إِلَّا وَأَتَجَسَّسُ وَرَاءَهُ لِلتَّنَبُّهِ إِلَى أَسْبَابِ جُرْأَتِهِ فِي تَعْطِيلِهِ[2] وَزَنْدَقَتِهِ »

وَمَعَ أَنَّ الْفَلْسَفَةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفَرْعَ الْبَارِزَ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ مِنْ فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ ، فَقَدْ قِيلَ عَنْهُ مِنْ أَسَاطِينِهَا[3] الْغَرْبِيِّينَ :

« لَمْ تُنْتِجِ الْفَلْسَفَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِكْرًا مُبْتَدِعًا كَالْغَزَالِيِّ » وَقِيلَ عَنْهُ : « إِنَّ أَمْثَالَ الْغَزَالِيِّ مُعْضِلَةٌ فِي نَظَرِ الْفَلْسَفَةِ ، فَأَشْخَاصُهُمْ حَقَائِقُ رُوحِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَوْضِيحٍ ».

---

(١) الزنديق : من يبطن الكفر و يظهر الايمان (٢) مذهب التعطيل : هو الذى ينكر أصحابه صفات البارى تعالى أولا يثبتونه (٣) الاساطين : جمع اسطوانة ، وهى فى اللغة العمود . والمراد هنا كبار العلماء وثقاتهم

وَيُعَدُّ ٱلْغَزَالِيُّ بِحَقٍّ ، إِمَامَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ ، فِي ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْعِلْمِيِّ ، وَٱلْأُسْلُوبِ ٱلِاجْتِمَاعِيِّ ، وَقَدْ حَرَصَ أَشَدَّ ٱلْحِرْصِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْقَارِئِينَ وَإِقْنَاعِهِمْ بِمَا يُرِيدُ إِبْلَاغَهُمْ إِيَّاهُ ، فَجَانَبَ ٱلتَّعْقِيدَ وَٱلِاصْطِلَاحَاتِ ٱلْفَنِّيَّةَ ، وَأَكْثَرَ مِنْ ضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ فِي تَقْرِيبِ ٱلْمَعَانِي ٱلدَّقِيقَةِ ، كَمَا يُعَدُّ بِحَقٍّ ، إِمَامَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلَّذِينَ حَاوَلُوا تَقْرِيبَ ٱلْفَلْسَفَةِ ، وَمُدْرَكَاتِ ٱلصُّوفِيَّةِ ، إِلَى عَقَائِدِ ٱلدِّينِ وَقَوَاعِدِهِ .

وَقَدْ نَصَبَ[1] ٱلدُّكْتُورُ أَحْمَدُ فَرِيدٍ ٱلرِّفَاعِيُّ نَفْسَهُ لِبَحْثِ هَذِهِ ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْفَذَّةِ ، وَعَرْضِ آثَارِهَا عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُمْهُورِ .

وَٱلْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ فَرِيدٍ ٱلرِّفَاعِيُّ - بِمَا هُيِّئَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ ٱلدَّرْسِ ، وَمَا وُفِّقَ لَهُ مِنْ بَعْثِ مَكْنُونِ ٱلشَّخْصِيَّاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ - قَدِ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يُبْرِزَهُ لِلنَّاسِ مِرْآةً صَافِيَةً ، تَتَمَثَّلُ فِيهَا شَخْصِيَّةُ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَتَظْهَرُ فِيهَا رُوحُهُ ٱلْقَوِيَّةُ ٱلْوَثَّابَةُ ، غَيْرَ نَاسٍ أَنْ يَزِنَ حُجَجَ خُصُومِ ٱلْغَزَالِيِّ ، وَأَنْ

(١) نصب : أقام

يُنَاقِشَهَا فِي رِفْقٍ وَأَنَاةٍ ، لَمْ يُوَفَّقْ لَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عَرَضُوا(١) لِدِرَاسَةِ الشَّخْصِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْفَذَّةِ .

وَهُوَ حِينَ يَكْتُبُ سِيرَةَ الْغَزَالِيِّ ، يُفَصِّلُهَا تَفْصِيلًا مَبْنِيًّا عَلَى خَيْرِ مَا تُكْتَبُ بِهِ سِيَرُ الرِّجَالِ ، وَيَعْرِضُهَا لِلنَّاسِ سِلْسِلَةً وَاضِحَةً ، لِيُمَكِّنَ لَهُمْ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِهَذَا السِّفْرِ الْحَافِلِ بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ فِي شَتَّى مَرَاحِلِهِ ، نَاشِئًا فِي الْعِلْمِ ، وَمُتَدَرِّجًا فِي مَدَارِجِهِ ، وَمُتَشَكِّكًا فِي مَعْلُومَاتِهِ ، وَمُتَعَطِّشًا لِدِرَاسَةِ عُلُومِ عَصْرِهِ ، وَمُتَبَاعِدًا عَنِ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَمُعْتَزِلًا فِي دَارِهِ ، وَمُتَصَوِّفًا ، وَمُدَرِّسًا بَاحِثًا ، وَفَيْلَسُوفًا حَكِيمًا ، وَمُرْشِدًا كَبِيرًا .

وَيَذْكُرُ كُتُبَ الْغَزَالِيِّ فَيَدْرُسُهَا دِرَاسَةَ الْمُتَفَهِّمِ لِمَرَامِيهَا ، الْمُوَضِّحِ لِمَقَاصِدِهَا ، وَيَجْلُو لِلنَّاسِ مَا فِيهَا مِمَّا يُهَذِّبُ الْخُلُقَ ، وَيُنِيرُ الطَّرِيقَ لِلْمُسْتَرْشِدِ ، وَيُثَقِّفُ الْعَقْلَ ، وَيُنَمِّي الْمَدَارِكَ ، وَيَصْقُلُ الْإِيمَانَ ، وَيُقَوِّي الْيَقِينَ .

وَيَذْكُرُ مَا اسْتَدْرَكَ خُصُومُ الْغَزَالِيِّ عَلَيْهِ ، مِنْ حِوَارٍ

(١) عرضوا : تعرضوا وتصدوا

وَحِجَاجٍ ، كَفَّرُوهُ بِهِ حِيناً ، وَجَهَّلُوهُ بِهِ آخَرَ ، فَيَتَعَهَّدُ لِتِلْكَ الشُّبَهِ[1] فَيَبْحَثُهَا وَيَكْشِفُ غَامِضَهَا ، وَلَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا .

وَمَا كَانَ الْجَدَلُ بَيْنَ الْغَزَالِيِّ وَخُصُومِهِ نِزَاعًا بَيْنَ أَشْخَاصٍ فَلَا يُقَامُ لَهُ وَزْنٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ نِزَاعٌ بَيْنَ فِكْرَتَيْنِ ، أَوْ كَمَا يُسَمَّى فِي الْعِلْمِ الْحَدِيثِ ، نِزَاعٌ بَيْنَ آرَاءِ مَدْرَسَتَيْنِ.

فَالْغَزَالِيُّ ، مِزَاجٌ[2] مِنْ عُلُومٍ شَتَّى ، أَنْضَجَهَا الْبَحْثُ ، وَصَقَلَهَا التَّفْكِيرُ ، وَأَصْفَتْهَا تَجَارِبُهُ وَشُكُوكُهُ الْقَاسِيَةُ الَّتِي عَانَاهَا فِي نَشْأَتِهِ ، وَالَّتِي وَصَفَهَا وَصْفًا دَقِيقًا فِي كِتَابِهِ « الْمُنْقِذُ مِنَ الضَّلَالِ » ، وَخُصُومُهُ لَا يَسِيرُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي يَسِيرُ فِيهَا ، وَلَا يَشْعُرُونَ بِلَذَّةِ مَا ذَاقَ الْغَزَالِيُّ مِنْ عُلُومٍ رُوحِيَّةٍ ، وَتَصَوُّفٍ مَزَجَهُ بِالْفَلْسَفَةِ .

فَمُهِمَّةُ الدُّكْتُورِ الرِّفَاعِيِّ فِي إِبَانَةِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ ، وَوَزْنِهَا جَيِّدًا ، مُهِمَّةٌ لَيْسَتْ بِالسَّهْلَةِ ، وَلَا بِالْيَسِيرَةِ ؛ لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْرِضَ لِآرَاءِ الْغَزَالِيِّ وَنَظَرِيَّاتِهِ فِي

(١) الشبه : جمع شبهة ، وهى الالتباس (٢) مزاج : خليط

ٱلْفَلْسَفَةِ ، فَيُؤَكِّدَ لِلنَّاسِ أَنَّ ٱلْغَزَالِيَّ شَأْى فَلَاسِفَةَ ٱلْغَرْبِ وَسَبَقَهُمْ بِأَجْيَالٍ فِي تَقْرِيرِ بَعْضِ ٱلنَّظَرِيَّاتِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ ، عَلَى وَجْهٍ ٱمْتَازَ بِهِ هُوَ ، وَهُوَ صَبْغُهَا بِالتَّصَوُّفِ ٱلَّذِي رَأَى فِي آخِرِ حَيَاتِهِ أَنَّهُ ٱلْعِلْمُ ، وَٱلْعِلْمُ كُلُّهُ . وَأَنْ يُفْهِمَ ٱلْجَاحِدِينَ ٱلْمُكَابِرِينَ أَنَّ فَلَاسِفَةَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَضَعُوا مِنَ ٱلنَّظَرِيَّاتِ فِي ٱلتَّرْبِيَةِ ، وَتَهْذِيبِ الطفْلِ مَا يُوفِي عَلَى ٱلْغَايَةِ فِي هَذَا ٱلشَّأْنِ ، وَفِي نِظَامِ الدَّوْلَةِ ، وَشُؤُونِ ٱلْحَيَاةِ ، مَا يَكْفُلُ لِلنَّاسِ ٱلسَّعَادَةَ وَٱلْهَنَاءَةَ .

وَفِي ٱلْكِتَابِ بُحُوثٌ كَثِيرَةٌ ، تُعْتَبَرُ عَرْضًا عَامًّا لِحَيَاةِ ٱلْغَزَالِيِّ ٱلشَّخْصِيَّةِ وَٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَيَتَمَثَّلُ بِهِ أَحْسَنَ تَمْثِيلٍ .

وَلَوْ نُدِبَ ٱلْمُفَكِّرُونَ لِمِثْلِ مَا نَدَبَ ٱلدُّكْتُورُ ٱلرَّافِعِيُّ نَفْسَهُ لِلْقِيَامِ بِهِ ، لَكَانَ لَنَا سِلْسِلَةٌ مِنْ دِرَاسَةٍ عَمِيقَةٍ ، لِأَبْطَالِ ٱلْفِكْرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَقَادَتِهِ ؟

محمد مصطفى

المراغى

٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٥٥
١٧ يونيه سنة ١٩٣٦

مُقَدِّمَة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ . وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَى رَسُولِهِ ٱلْكَرِيمِ . « وَبَعْدُ » فَهَذَا مُوجَزٌ مِنَ ٱلتَّصْدِيرِ ، بَلْ هُوَ تَعْجِيزٌ مِنَ ٱلْإِعْجَازِ ، وَتَوَاضُعٌ صَغِيرٌ فِي تَوَاضُعٍ كَبِيرٍ ، وَٱعْتِرَافٌ بِقِلَّةِ ٱلْبِضَاعَةِ ، إِزَاءَ إِمَامِ ٱلْعَصْرِ وَٱلسَّاعَةِ ، وَٱبْتِهَالٌ إِلَى ٱلْوَاحِدِ ٱلصَّمَدِ أَنْ يُوَفِّقَنَا إِلَى حُسْنِ ٱلْإِصَابَةِ ، وَهَدَفِ ٱلْإِجَابَةِ ، وَيُمْنِ ٱلْإِفَادَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى ٱلنَّيْسَابُورِيُّ ، أَحَدُ تَلَامِيذِ حُجَّةِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلْغَزَالِيِّ : « لَا يَعْرِفُ ٱلْغَزَالِيَّ وَفَضْلَهُ إِلَّا مَنْ بَلَغَ ـ أَوْ كَادَ يَبْلُغُ ـ ٱلْكَمَالَ فِي عَقْلِهِ » فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ ضَعِيفٌ مِثْلِي فِيمَا سَطَّرَ وَحَاوَلَ ؟ وَأَيُّ خَطَرٍ[1] لِصَنِيعِهِ فِيمَا جَمَعَ وَتَنَاوَلَ ؟ وَكَيْفَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلتَّمْهِيدِ لِقَوِيٍّ يَنْزِعُ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَقَدِيرٍ بِالرَّأْيِ يُصْدِرُ عَنْ غَزِيرِ شِرْعَتِهِ[2] . إِلَّا أَنَّ

(١) قدر وقيمة (٢) الشرعة: مورد الماء ، والكلام على المجاز

سِفْرَنَا هَذَا ، قَدْ جَمَعَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ إِمَامَ الْإِسْلامِ فِي حَاضِرِهِ « الْأُسْتَاذَ الْمَرَاغِيَّ » وَحُجَّةَ الْإِسْلَامِ فِي غَابِرِهِ الْإِمَامَ الْغَزَالِيَّ ، عَلَى تَوَافُقٍ فِي الْفَضْلِ وَتَطَابُقٍ ، وَتَوَاثُبٍ إِلَى الْكَمَالِ وَتَسَابُقٍ ، فَكَأَنَّ التَّمْهِيدَ مَنَارٌ يَكْشِفُ السَّفِينَ ، وَيَتَبَيَّنُ الزَّوْرَقَ ، وَيُلْقِي بِضَوْئِهِ السَّنِيِّ الْمُشْرِقِ ، فَيَغْمُرُ صَفْحَةَ الْمَوْجِ الْمُصْطَفِقِ ، وَيَهْدِي الْمُسَافِرَ وَالسَّائِحَ ، وَالْغَادِيَ وَالرَّائِحَ ، إِلَى شَاطِئِ الْيَقِينِ ، وَسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . أَوْ كَأَنَّهُ تَعَانُقُ الْأَغْصَانِ وَالْأَشْجَارِ ، وَمُنَاغَاةُ الْبَلَابِلِ وَالْأَطْيَارِ ، وَكَأَنَّكَ مَعَهُ فِي أَعْبَقِ شَمِيمٍ (١) ، وَأَرَقِّ نَسِيمٍ ، بَلْ كَأَنَّكَ فِيهِ فِي تَرْتِيلٍ وَتَرْنِيمٍ ، وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ .

وَإِنِّي لَضَعِيفُ الْبَيَانِ فِي « الْحُجَّتَيْنِ » عَاجِزٌ أَمَامَ نُبُوغِ الْأُمَّتَيْنِ (٢) ، مَاتِحٌ (٣) مِنْ فَيْضِ الْعَلَّامَتَيْنِ ، ضَعِيفٌ إِزَاءَ الْجِهْبِذَيْنِ (٤) ، مُهْتَدٍ بِسَنَى النَّيِّرَيْنِ .

وَعَلِمَ اللهُ أَنِّي قَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أُسْهِبَ فِي التَّصْدِيرِ ،

(١) أى فى مشموم منتشر الرائحة (٢) الأمة الرجل الجامع للخير والامام (٣) ماتح : مستخرج ومستمد (٤) الجهبذين . مثنى جهبذ . وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الردىء

فَعَجَزَنِي فِيهِ مَنْطِقُ ٱلْإِعْجَازِ فِي ٱلْحَالَتَيْنِ، وَأَلْزَمَنِي ٱلتَّوَاضُعُ فِي صِغَرِهِ ٱلْخُشُوعَ أَمَامَ ٱلْعَظَمَتَيْنِ ٱلْمُتَوَاضِعَتَيْنِ فِي جَلَالِ ٱلتَّوَاضُعِ وَكِبَرِهِ، فَانْثَنَيْتُ[1] وَلَمْ أُحَاوِلْ، وَوَلَّيْتُ وَلَمْ أُطَاوِلْ، وَأَدْبَرْتُ وَلَمْ أُصَاوِلْ[2]، وَقَدْ غُمِرَ تَوَاضُعِي بِهُدًى مِنَ ٱلْجَذَلِ وَٱلسُّرُورِ، وَسَنًى مِنَ ٱلْغِبْطَةِ وَٱلْحُبُورِ، لِلظَّفَرِ بِهَذَا ٱلدُّرِّ ٱلْمَنْثُورِ، وَذَيَّاكَ ٱلتَّصْدِيرِ مِنَ ٱلشُّذُورِ، وَٱللُّبَابِ دُونَ ٱلْقُشُورِ، وَٱلْمُتْعَةِ بِمَا حَوَى مِنْ لُطْفِ مَدْخَلٍ، وَرِفْقِ تَنَاوُلٍ، وَسَمَاحَةِ مَنْطِقٍ، وَرَجَاحَةِ تَفْكِيرٍ، جَاعِلًا مِنْهُ كِتَابِي كَالْهَامِشِ، وَٱلْأَصْلَ فِيهِ كَالتَّذْيِيلِ، وَبَرَاعَةَ ٱلِاسْتِهْلَالِ مِنْ هَذِهِ ٱلْفُصُولِ ٱلْبَارِزَةِ فِيمَا طَالَعَنَا بِهِ أُسْتَاذُنَا ٱلْجَلِيلُ، ٱلْحُجَّةَ ٱلثَّالِثَةَ فِي ذَاتِهَا وَٱلدَّلِيلَ، لِيَكُونَ ٱلْكِتَابُ كُلُّهُ فِي ٱلتَّجْزِئَةِ وَٱلتَّفْصِيلِ، حُجَجًا لِلْإِسْلَامِ فِي ٱلْمُتَرْجَمِ لَهُ، وَٱلْمُعَبَّرِ عَنْهُ، وَٱلْمُجْتَهَدِ فِيهِ، وَٱلْمُصَدِّقِ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَٱلْمُنْتَفِعِ بِهِ مَعَ ٱلْمُنْتَفِعِينَ، هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

أحمد فريد رفاعي

دار المأمون { ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ / يوليه سنة ١٩٣٦

(١) رجعت (٢) صال على قرنه: سطا.

الغـــزالى

لمحات تمهيدية

(١) — الْعَصْرُ الْعَبَّاسِىُّ وأَثَرُ الْفَلْسَفَةِ فِيهِ

سلسلة التدرج

يَحْسُنُ بِنَا قَبْلَ أَنْ نُعَالِجَ الْكَلَامَ فِى حَيَاةِ حُجَّةِ الْإِسْلَامِ أَبِى حَامِدٍ الْغَزَالِىِّ ، أَنْ نُلِمَّ فِى إِيجَازٍ بِسِلْسِلَةِ التَّدَرُّجِ الْفَلْسَفِىِّ ، الَّذِى مَهَّدَ لِظُهُورِ شَخْصِيَّتِهِ الْبَارِزَةِ ، وَأَنْ نَقِفَ فِى اخْتِصَارٍ عَلَى أَدْوَارِ التَّكْوِينِ الَّتِى سَبَقَتْهُ ، حَتَّى نَتَبَيَّنَ عَوَامِلَهَا فِيهِ ، وَنَسْتَخْلِصَ الْأَفَاعِيلَ[1] الَّتِى أَثَّرَتْ فِى ذِهْنِهِ وَنَفْسِهِ ، وَالْمَرَاحِلَ الَّتِى تَقَدَّمَتْ ظُهُورَهُ .... فَإِنَّ لِذَلِكَ كُلِّهِ بِلَا رَيْبٍ صِلَةً وَثِيقَةً بِنُشُوئِهِ وَتَكْوِينِهِ .

الفلسفة قبل ظهور الغزالى

كَانَ ظُهُورُ الْإِمَامِ الْغَزَالِىِّ فِى النِّصْفِ الثَّانِى مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِىِّ ، أَىْ فِى الْعَصْرِ الْعَبَّاسِىِّ الثَّالِثِ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ إِلَى أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ هِجْرِيَّةً وَقَدْ سَبَقَ ظُهُورَهُ انْتِشَارُ الْفَلْسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْفَلْسَفَاتِ الْقَدِيمَةِ ، كَفَلْسَفَةِ الْهِنْدِ ،

(١) الأفاعيل : جمع أفعول أو أفعال : صيغة تختص بما يتعجب منه . قال السعد فى حواشى الكشاف : وهو عربى ، وقيل مولد

وَفَلْسَفَةَ ٱلْفُرْسِ كَذٰلِكَ ، ـ إِذَا نَحْنُ تَرَخَّصْنَا فِى ٱلتَّعْبِيرِ ـ إِذْ لَمْ تَكُنْ هٰذِهِ ٱلْفَلْسَفَةُ فِى ٱلْوَاقِعِ غَيْرَ مَا نَقَلَهُ ٱلْفُرْسُ مِنَ ٱلْفَلْسَفَاتِ ٱلَّتِى عَيَّنَّاهَا ، وَمَا أَصَابُوهُ مِنْ مَدْرَسَةِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَتَرْجَمُوهُ عَنِ ٱلسُّرْيَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا نَقَلَهُ ٱلْعَرَبُ فِى نِهَايَةِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ ، وَصَدْرِ ٱلْعَهْدِ ٱلْعَبَّاسِىِّ مِنْ عُلُومِ ٱلْأُمَمِ ٱلَّتِى غَزَوْهَا ، وَٱلْأَقْطَارِ ٱلَّتِى أَخْضَعُوهَا لِسُلْطَانِهِمْ وَأَدْخَلُوهَا فِى دَائِرَةِ إِمْبَرَاطُورِيَّتِهِمْ ، وَكَانَ شَأْنُهُمْ فِيهَا وَمَعَهَا شَأْنَ ٱلِامْتِزَاجِ وَٱلتَّفَاعُلِ وَٱللِّقَاحِ وَٱلتَّوَالُدِ ، وَكَانَ حَالُهُمْ إِزَاءَهَا وَحَالُهَا إِزَاءَهُمْ أَنِ ٱنْقَلَبَ ٱلْغَازِى مَغْزُوًّا ، وَٱلْفَاتِحُ مَفْتُوحًا ، وَٱلْغَالِبُ بِنَفْسِهِ مَغْلُوبًا.

وَكَانَ لِهٰذَا ٱلنَّقْلِ عَنِ ٱلْحَضَارَاتِ ٱلْقَدِيمَةِ أَثَرُهُ بِلَا شَكٍّ فِى صَبْغِ ثَقَافَتِهِمْ بِلَوْنٍ جَدِيدٍ ، فَقَدْ كَانَ كُلُّ دَأْبِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ قَبْلَهُمُ ٱلْبَحْثَ فِى ٱلدِّينِ ، وَكَانَتْ ثَقَافَتُهُمْ فِى جَوْهَرِهَا دِينِيَّةً فِقْهِيَّةً لَا أَثَرَ فِيهَا لِلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْفَلْسَفِيَّةِ وَٱلْكَوْنِيَّةِ ، إِذْ كَانَ عَصْرُهُمْ فِى جُمْلَتِهِ قَرِيبًا مِنْ عَصْرِ ٱلتَّسْلِيمِ وَٱلْإِيمَانِ ، وَٱلِاقْتِنَاعِ وَٱلْإِذْعَانِ ، وَحُكْمِ ٱلسُّنَّةِ وَٱلْقُرْآنِ : عَصْرِ صَدْرِ ٱلْإِسْلَامِ .